كتب

صحيح أنّه صدر بمناسبة إحياء المئوية الثانية لميلاد الكاتب الروسي العام المنقضي، لكنّ «قاموس دوستويفسكي» ليس مجرّد احتفاء بعيد ميلاد، إنّه أقرب إلى تلبية ضرورة ثقافية: تجديد الصلة مع أدب من أهم ما أنتجته الثقافة العالمية

قاموس دوستويفسكي حيث يقف كتّاب السيرة

كي لا نفقد الصلة مع الإخوة كارامازوف

شوقي بن حسن

من الصعب أن نتخيّل صبرَ قارئٍ من القرن الحادي والعشرين على الانغماس في كتاب يتجاوز خمسمئة صفحة، فماذا عن كتب تتجاوز الألف وأكثر. نعرف، أيضاً، أنّ مثل هذه الكتب الضخمة، من محاورات أفلاطون إلى «اسم الوردة» لأومبرتو إيكو، قد حوت الكثير من درر الذهن البشري وكنوزه، فهل يمكن أن نتركها تضيع بسبب مزاج القرّاء المعاصرين أو عدم قدرتهم على توفير الوقت والتركيز؟ من هذه الإشكالية انطلق مشروع «قاموس دوستويفسكي» الذي أعدّه الباحث ميشيل نيكو Michel Niqueux، وصدر عن «معهد الدراسات السّلافية» في باريس خلال العام المنقضي، وهو عام المئوية الثانية لميلاد الكاتب الروسي، وقد كان ذلك سبباً لظهور مجموعة أعمال في فرنسا تضيء منجز صاحب «الجريمة والعقاب»، أبرزها هذا القاموس، وكتاب جماعي بعنوان «دوستويفسكي: المغامرة العائلية» (إيغور فولغين وكريستوف ترونتين وبيير لامبيه)، كما صدر كتاب «القيامة الروسية: الإله في بلاد دوستويفسكي» لـ جان فرانسوا كولوزيمو.

من المعروف أنّ دوستويفسكي كان أحد أكثر الكتّاب ميلاً إلى التشعّب وهو يناقش - أدبياً - قضايا فكرية ووجودية، مثل مسألة الشرّ ومعنى الحياة، أو يتوغّل في نفسيّات أبطاله وأفكارهم، كراسكولنيكوف (الجريمة والعقاب) وإيفان (الإخوة كارامازوف) وغولياديكين (المَثيل). هكذا فرضت رغبة الوصول بمشاريعه إلى أقصى ممكناتها تلك الأحجام الكبيرة لروايات مثل «الشياطين» و«المراهق» و«الأبله» و«الإخوة كارامازوف».

لا يخفى أنّ هذه الروايات قد كُتبت ضمن أفق تلقّي قارئ القرن التاسع عشر. كانت تصدر في حلقات متسلسلة في الغالب، قبل أن تُطبع في كتب، وكثيراً ما تُقرأ خلال المسافات الطويلة التي تقطعها القطارات أو في أمسيات مخصّصة لذلك. ولقد اندثرت كل هذه الظروف التي ترافق فعل القراءة، وهو ما يعني أن ما في بطون روايات دوستويفسكي مهدّد بأن يصبح قارة مجهولة لا يعرف ما فيها سوى المتخصّصين.

لكنّ «قاموس دوستويفسكي» يلفتنا إلى إشكالية حول هذه النقطة أيضاً، فحتى هؤلاء المتخصّصون، ممّن يمكن الاستعانة بهم للولوج إلى عوالم الكاتب الروسي، قد تضخّمت مدوّنتهم حوله بحيث بات من الصعب الإمساك بما يقترحونه من مقاربات وأفكار، هذا من دون أن نحصي أسماء من تجلّى دوستويفسكي في مرايا أدبهم أو فلسفتهم أو منجزهم الفنّي، مثل نيتشه ولينين ومالرو...

هكذا، فـ«قاموس دوستويفسكي» ليس مجرّد احتفاء بعيد الميلاد المئتين للكاتب، إنه أقرب إلى تلبية ضرورة ثقافية، ومن هذه الزاوية، تظهر لنا إحدى الوظائف التي ينبغي أن تنهض بها صناعة القواميس، وهو إتاحة مداخل لما هو مفلت عن الإحاطة. القواميس، بهذا المعنى، أجهزة ثقافية للإمساك بالمُتشعّب، ومسارات مختصرة نحو أهدافٍ جعلها التضخّم المعرفي مهدّدة بالضياع.

هنا، لا ينسى أن يوصينا ميشيل نيكو - منذ السطر الأول من التقديم - بألّا نختزل عالم دوستويفسكي في مجموعة كلمات وتعريفاتها، فـ«القاموس يُستعمل كدليل، له قيمة بلا شك ولكنه لا يعوّض الشيء الذي يحيل إليه؛ أي أنّه لا يمكنه أن يعوّض قراءة النص الدوستويفسكي» وإلّا بات القاموس حاجباً لا يؤدّي الدور المنتظر منه.

في حالة دوستويفسكي، وفي حال أحسن استعماله القارئ، يتيح القاموس أن نتقدّم خطوة أبعد مما يقف كتّاب السيرة، فمن المعروف أنّ دوستويفسكي يمثّل ظاهرة متعددة المستويات؛ هناك من جهة مادة أدبية لها منطقها التخييلي والأسلوبي، وهناك حياة شخصية متقلّبة تبدو هي الأخرى مثل رواية دوستويفسكية بعبارة هنري تروياه، وهناك دوستويفسكي الذي صنعه الآخرون، من أقارب وناشرين ومؤوّلين... ما يتيحه القاموس هو الربط بين عناصر متباعدة بين هذه الفضاءات، إذ يضعها في كتلة واحدة ضمن ترتيب اعتباطي متفق عليه (الأبجدية)، فيما السيرة - وكذلك الدراسة الأدبية أو الفلسفية - تبحث على تصعيد تلك العلاقات إلى مستوى من الوعي يُجبرها على اختزالات كثيرة، كوضع حدثيْن متفرّقين (مثل تجربة السجن التي عاشها دوستويفسكي ومحورية الجريمة في عدّة روايات) على خطّ تأويلي واحد.

ينجح القاموس في الربط بين المتنافر حين لا يدّعي أيّ ربط، أما كتّاب السيرة (وهؤلاء يحضرون في القاموس: ليونيد غروسمان، دومينيك أربان، جوزيف فرانك، ...)، فحين يعقدون الروابط يجتهدون لوضعها على سلّم زمني واحد خاضع لمقتضيات البناء السردي، أي يقترحون علاقة ما هي إلا احتمال بين احتمالات كثيرة يتركها القاموس تتعايش معاً، وهو بذلك أقرب إلى الطريقة التي يعمل بها العقل البشري بالتحرّك في كل الاتجاهات رابطاً بين الإحالات (أو يترك ذلك) غير ملتزم بالزمن، وغيره من الشروط التي تفرضها الكتابة السردية أو النظرية.

يتوزّع القاموس على ثلاث مجموعات كبرى من المداخل، في الأولى نجد عناصر العالم الأدبي الذي ابتدعه دوستويفسكي، فنقف على حبكة كلّ رواية على حدة، وأحياناً نجد حكاية كلّ شخصية وكأنّها رواية منفصلة بذاتها، ويذكر نيكو حين يقتضي الأمر ذلك بعض الأحداث الحافة بكتابة هذه الرواية أو تلك، وأشهرها حكاية تأليف رواية «المقامر»، أو ما ورد في رسائل دوستويفسكي من تفسيرات لمشاريع مؤلفاته وكيف يودّ بناء الشخصيات.

أما المجموعة الثانية فهي التي يسميها نيكو بـ«عالم الأفكار»، أي مجموع تلك الثيمات التي تناولتها نصوص صاحب «الزوج الأبدي»، ومن أبرزها: العدمية، والشيطان، والحالِم، والحرية، والنزعة السلافية، والمال.

ونجد ضمن الفئة الثالثة أسماء أعلام، وهؤلاء إما ممّن تأثّر بهم دوستويفسكي (غوغول، بوشكين، شيلر، هوفمان، بلزاك...) أو ممّن أثّر فيهم، أو ممّن انكبّوا على دراسته (باختين، شيستوف، بارديف، كلوديل...)، إضافة إلى من كانوا طرفاً في حياة دوستويفسكي، ولا يمكن فهم الكثير من فصولها من دونهم، كزوجته أنّا غريغورييفنا التي أشرفت على نشر مجموعة كتاباته الذاتية بعد رحيله، وأخيه ميخائيل الذي كان أكثر من خاطبه عبر الرسائل، وحلقات النقّاد والناشرين والكتّاب المعاصرين له.

القاموس من وجه آخر يبدو كاستعراض لقوة الثقافة الفرنسية في هضم دوستويفسكي. إنّه يشير إلى المثابرة في نقل أعماله منذ نهاية القرن التاسع عشر (هناك ثلاث ترجمات مختلفة للأعمال الكاملة، ناهيك عن روايات ترجمت أكثر من عشر مرات). كما يشير القاموس إلى أنّ الثقافة الفرنسية قد نقلت أبرز ما كُتب عن دوستويفسكي بلغته الأصلية (باختين، غروسمان، شيستوف...)، ونقلت الكثير مما صدر عنه في لغات أخرى، كالألمانية (فرويد، تسفايغ...)، والإنكليزية (جورج شتاينر، جوزيف فرانك...) وغيرها.

وأكثر من ذلك، يُبرز القاموس أنّ الثقافة الفرنسية تحتوي على عدد من أبرز المتخصّصين في أدب دوستويفسكي، مثل جاك كاتو ودومينيك أربان وأندريه ماركوفيتش، كما أنّ المثقفين الفرنسيين كانت لهم قراءات فريدة لنصوص صاحب رواية «المراهق»، مثل رونيه جيرار وأندريه جيد وجوليا كريستيفا. تقريباً، يقول القاموس إن الثقافة الفرنسية التقطت معظم ما يمكن التقاطه من «مجرّة دوستويفسكي»، وما القاموس إلّا محاولة لجعل هذا المنجز الكبير مرئياً في إطار واحد.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

مرجعية غير مُعلَنة

يمثّل دوستويفسكي مرجعية لدى عدد واسع من كتّاب الادب والفكر في الغرب (فريدريك نيتشه، ألبير كامو، مكسيم غوركي، أندريه جيد، رونيه جيرار...)، وهو أمر يعلنونه بشكل مباشر وكأنّه يضفي شرعية على عوالمهم المتخيّلة او نظريا تهم. لن نجد الامر ذاته عربياً، حيث تحضر تقنية تعدّد الأصوات في الرواية من دون إسنادها إليه، كما تحاكي بعض الحبكات أعماله من دون إشارة لذلك، وهو ما يظهر في بعض اعمال نجيب محفوظ.

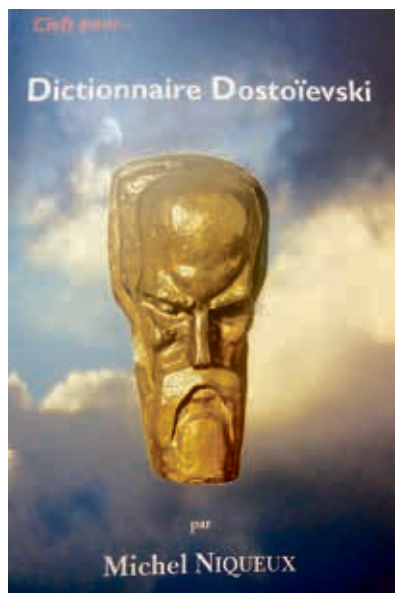

ما في بطون روايات دوستويفسكي مهدّد بأن يصبح قارة مجهولة

تختلف كثيراً أشكال حضور الكاتب الروسي بين ثقافة وأخرى

تمثال لدوستويفسكي أمام مدخل «مكتبة لينين» في موسكو (Getty)

نظرة أولى

صدر حديثاً كتاب **دراسات اجتماعية من العراق** للباحثة والأكاديمية العراقية لاهاي عبد الحسين عن «دار المدى». يضمُّ العمل ثلاث دراسات تُضيء على الإسهامات النظرية والمنهجية لعالم الاجتماع العراقي علي الوردي (1913 - 1995)، والذي ترى المؤلّفة أنّه «ساهم في تنوير العقل العراقي ونجح في إثارة الوعي الاجتماعي وتوجيهه للتعرُّف على أهمية القوى الاجتماعية المؤثّرة ذات الفعل والفاعلية في الحياة اليومية». كما يضمُّ الكتاب دراسات حول مستقبل علم الاجتماع في العراق، ويستعرض تجربة فالح عبد الجبار (1946 - 2018) في هذا المجال.

بلادٌ على أُهبة الفجر: العصيان المدني والحياة اليومية في بيت ساحور عنوان كتاب صدر حديثاً عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» للباحث الفلسطيني أحمد عز الدين أسعد، ويوثّق فيه واقع البلدة التي تبعد 10 كلم جنوب القدس إبّان سنوات الانتفاضة الشعبية الفلسطينية الأولى عام 1987، من خلال تحليله لعوامل ساهمت في عودة العصيان المدني في بيت ساحور، والذي يرتكز أساساً على البنيات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، حيث تبلورت هوية البلدة المقاومة في نضالها لمواجهة الضرائب التي فرضها الاحتلال.

لدى منشورات «فاريو» في باريس، صدر حديثاً الكتاب الجماعي **اللايقين في التحليل النفسي** بتحرير الطبيب والمحلّل النفسي جان إيف تاميه، ومشاركة محلّلين وباحثين في هذا المجال. يسعى العمل إلى إيضاح مكانة اللايقين . الذي يرد بصيغة الجمع في عنوان الكتاب الأصلي بالفرنسية . في صُلب التحليل النفسي، كممارسة علاجية وكخطابٍ معرفيّ، وذلك في المتن الفرويديّ وكذلك في العديد من الحالات العينية التي يقدّمها المشاركون في العمل. مقولة أغلب هذه المشاركات تتمثّل في ضرورة اللايقين وفي دوره بالكشف عن مُضمرات النفس البشرية.

عن منشورات «معنى» صدر مؤخّراً كتاب **تقديم الذات في الحياة اليومية** لعالم الاجتماع الأميركي إرفنغ غوفمان بترجمة ثائر ديب. صدر العمل أوّل مرة عام 1956 وصنّف لاحقاً كواحد من أهمّ كتب علم الاجتماع في القرن الماضي. تكمن أهميّته في كونه أوّل محاولة تنظيرية لوصف كيف يدير البشر صورهم والانطباع العام عنهم داخل منظومة الحياة الاجتماعية. يستخدم غوفمان صورة مجازية من خلال تمثيله للحياة العامة كمسرح، وقد عُرفت منهجيّته لاحقاً باسم التحليل الدراماتورجي. تجدّد الاهتمام بهذا العمل مع صعود ظاهرة شبكات التواصل.

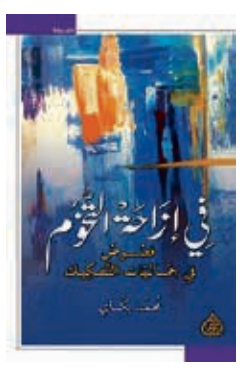

في إزاحة التّخوم: فصوص في جماليات التفكيك عنوانُ كتابٍ صدر مؤخّراً عن «دار الرّافدين» للباحث الجزائري محمد البكاي. يقدّم العمل مقاربات حول مجموعة من قضايا الفنون، من خلال عددٍ من المفاهيم الأساسية في الفكر الفرنسي المعاصر، مثل الإرجاء والكتابة والتفكيك. من فصول الكتاب: «تكتيكات وتفكيكات، النص والأثر بين الحفريات والجماليات»، و«النصّ وبصيرة التفكيك»، و«الإرجاء وأوديسّا البحث عن الكتابة الأصلية»، و«كتابة الفلسفة وامتدادات الاستعارة»، و«سيمولاكر النصّ وتهديد الدلالة»، و«سياسات الاختلاف عند دريدا».

عن «منشورات جامعة هارفرد»، صدر حديثاً كتاب **أسطورة الذكاء الاصطناعي: لماذا لا تستطيع أجهزة الكمبيوتر التفكير بالطريقة التي نفكّر بها** للباحث إريك جي. لارسون. يضيء الكتاب كيفية عمل الذكاء الاصطناعي التي تقوم على الاستدلال الاستقرائي من خلال دراسة مجموعات كبيرة من البيانات للتنبّؤ بنتائج غير متوقّعة، لكنّها تظلّ قاصرة مقارنةً بالذكاء البشري الذي يصِل إلى تخمينات مستنيرة عبر قراءة البيانات في سياقها والاعتماد على خبرات متراكمة في كلّ حقل معرفي، مبيّناً أن الذكاء الاصطناعي يُعتبر عِلماً يشوّه العلوم.

عن دار «فارابي» التركية في إسطنبول، صدرت حديثاً رواية **الخميادو** للكاتب والإعلامي السوري إبراهيم الجبين. في حبكةٍ تجمع بين الواقعيّ والمتخيّل، يتناول الجبين المأساة السورية عبر المزج بينها وبين فصولٍ عاشها العرب في الأندلس، حيث يتوزّع السرد بين حاضرٍ يلي الثورة السورية بسنوات طويلة، وبين ماضٍ يأتي ليُضيء تفاصيلَه. تحضر في العمل شخصيّاتٌ عدّة عُرفت خلال الثورة السورية، مثل الكاتب الفلسطيني سلامة كيلة (1955 . 2018) والمغنّي السوري سميح شقير. من أعمال الجبين السابقة: «أجراس الوباء» و«عين الشرق».

تحطيم التماثيل في فضاءات العالم العربيّ العامة عنوان كتاب للشاعر والباحث شاكر لعيبي صدر حديثاً عن «دار خطوط وظلال»، وفيه يتناول ظاهرة تحطيم التماثيل التي يربطها، في الحالة العربية، بغياب تذوُّق الفنّ وتقدير أهمّية الآثار الفنية بسبب غياب مادّة تاريخ الفن عن غالبية مدارس العالم العربي، وفق قوله. كما يعتبر أنّ التنديد بالظاهرة عادةً ما ينطلق من كون الأعمال الفنّية وثيقة تاريخية وموضع اعتزاز قومي، وليس لجهة أهمّيتها الجمالية. يشير الكاتب إلى مفارقةٍ تتمثّل في أنّ نهب آثار المنطقة أمّن لها حمايةً في متاحف غربية.